كابوس الشاعر

نصار عبد الله

(١) العودة

بعد سبع سنين قضاها الشاعر ن . ع في خدمة القوات المسلحة شهد خلالها معارك حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر واستشهاد عدد كبير من زملائه ، عاد إلى عمله الذي بإدارة البحوث الاقتصادية بالمصرف المركزي ، عاد إلى عمله الروتيني ليصبح اسمه مرة أخرى « الأستاذ فلان » . . بعد أن كان الجندي مؤهلات « فلان » . . عاد ليغرق في أكداس من التقارير والملفات والصحف وبرقيات وكالات الأنباء والأرقام وجداول الاحصائيات والرسوم البيانية ، ثم يمضي آخر الشهر إلى الخزانة لكي يقبض راتبه الشهري .

الحق يقال . . إن بلادنا كريمة وبارة بأبنائها المقاتلين ، فرغم انقطاعهم عن العمل طوال فترة التجنيد ظلت مرتباتهم تصرف بلا انقطاع . وعلى الرغم من الصدمة الثانية التي أصابتنا بسبب الحرب فقد ظلوا يحصلون على علاواتهم ورقياتهم . لا يفقدون شيئا عن زملائهم الموجودين بالعمل فعلا . بل لقد كانت لهم الأولوية في بعض الحالات . وهكذا وجد الشاعر ن . ع أن راتبه الشهري قد قفز خلال هذه السنوات السبع إلى ثلاثين جنيها كاملة ، وهو مبلغ لم يطلقه معيشته لمدة عشرة أيام بأكملها .

هذا هو كل ما يملكه الشاعر . وهذه تقاريره عن الأوضاع الاقتصادية في الولايات المتحدة والبنك الدولي والبيانات والإحصائيات والأهرام الاقتصادي . هذا هو مشروع اختراع سيدريلا وولد والتوبيه وبروتوكول والرباط بالصداع حرب أكتوبر هي التي رفعت أسعار البترول من ثلاثة دولارات للبرميل إلى ثلاثة عشر دولارا . فالمصدر السعودية وبترول الخليج سوف يزداد في العام القادم بمقدار الاثنين أو ثلاثين دولارا على الأقل . ولكننا لن نتوقع أن تشهد مواردنا المتوقعات في البترول اقتصادنا تحولا شاملا . وسوف يظل اقتصادنا رهن ضغوط تضخمية . سوف يظل التضخم هو التجارة الخارجية إلى الدول الأجنبة في أثر دور الدخول الثابتة هم الذين سوف يخرجون من التضخم . فيما الثلاثين جنيها من الشاعر الفعلية سوف تتحقق إلى ما يعادل عشرة جنيهات ونصا أقل . والصداع . الأرقام تتراجع أمام عينيه والصداع يشتد والجداول والتفاصيل والرسوم البيانية تراقص هذا هو ما يمل براتبه على الكتب ويسحرق في اليوم . حسنا يدافع الكابوس

٢ - الكابوس

أخيرا هو ذا الشاعر ن . ع يسافر إلى أحد البلاد المجاورة ليعمل باحثا مساعدا بإدارة الإبحاث الاقتصادية التابعة لوزارة المالية والنفط . العمل في طبيعة لا يختلف كثيرا عن العمل في المصرف المركزي المصري . غير أن المكاتب وثيرة . والمختبرات مكتظة بالقراء والمجهزة بأحدث الأدوات والأجهزة . ولقد خصصت له حجرة مستقلة لحاورها حجرة رئيس الدائرة . حبا استطاع أن مرة ذهب بالفرح من تلك النظرات الغريبة التي راح يرمقه بها . وحده صخري كالح تتوسطه عينان غائرتان . أخيا يشبه بعضا

النظرة الواضحة . فامسح الشاهر إلى مكتبه . هربا من هذه النظرة على الأقل . بدأ العمل غير أنه توقف فجأة إذ خيل إليه أنه يسمع أصواتا غريبة في الكتب المجاور . أصوات آلات وبرامس . ثم صرخات مكتومة . الجدران غير مطلية للصوت لكن هذه الأصوات خيالية بدون شك . وهي إن تكن خائفة فإنها لا يمكن أن تكون واقعا . ترى أهو مكتب الرئيس . أو أنه وردية عاصفة . حدث فيها الإن أشياء ما . عادة العمل ثم توقف عندما سمع الأصوات مرة أخرى . وأحس بدقته يشتت واستبد به الفضول . قال لنفسه سأتجاهل الغرفة بدون استئذان ولكن ما يكون . خرج من مكتبه واتجه إلى باب مكتب الرئيس . توقف برهة عند الباب ووضع أذنه على لقب القفاح غير أنه لم يسمع شيئا . كل شيء هادئ تماما . أدار مقبض الباب فجأة ودخل إلى الداخل . كان الرئيس ذو الوجه الصخري الكالح متكئا على مكتبه يطالع كتابا . وعندما شعر بدخوله جذب درج المكتب وألقى الكتاب بداخله في سرعة خاطفة كمن يحاول إخفاء شيء هام . ثم نظر إليه في ارتياح وغضب . كيف تدخل بلا استئذان . ألا تعرفون الذوق في بلادكم . قال الشاهر . عفوا سيدي ولكن الصياح الأحمر الموضوع على الباب بالخارج كان مطفأ فلم أر داعيا من الدخول مباشرة . قال الرجل الصخري وقد هدأت ملامحه . تقول كان مطفأ . حسنا . حسنا . أهل الدائرة الألكترونية مهملة . وسوف تصلحها . لكن ما تريد ؟ قال الشاهر . أريد أن أقول إن مدة ثلاثة أيام لا تكفي اطلاقا لاعداد البحث المطلوب .

قال الرجل : لا بد من الجازة خلال ثلاثة أيام على الأكثر . إذ أن هناك مؤتمرا مهما سوف . أحضره بعد ثلاثة أيام وسوف ألقي البحث على الحاضرين .

قال الشاهر : يمكنني أن أجازه خلال ثلاثة أيام ولكن يبقى أن أبقى في المكتب بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية .

قال الرجل الصخري . فهمت . أنت تريد أن تطلب أجرا اضافيا . لا بأس . لا بأس سوف تتحلث أجرا إضافيا . قال الشاهر . كلا لا أتكلم عن الأجر الإضافي . لكنني أرجو أن تصرحوا لي بالبقاء في المكتب بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية لأني أعلم أن الجميع يغادرون مكاتبهم في هذه المواعيد . ومن المحظور أن يبقى أحد بعد ذلك . قال الصخري يا مرحبا . معلك حق إني أصرح لك بالبقاء في المكتب بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية . ثم فتح درج المكتب وأخرج رزمة من المفاتيح أعطاها له قائلا . خذ هذه المفاتيح وسوف أنبه على العمال بأنك سوف تقوم بإقفال الأبواب بدلا مني . لا تنس أن تأكد من إقفالها جيدا قبل أن تنصرف . أخذ الشاهر المفاتيح وعاد إلى مكتبه . حاول أن يبدأ العمل غير أنه لم يستطع فقد كان الذعر منتشرا إلى أبعد كثير . ترى ما هذه الأصوات التي سمعها . لعلها كانت نتجت من جهاز تسجيل أو مذياع موضوع في مكان ما بالغرفة أو لعلها أصوات حقيقية مباشرة . لكن كيف ؟ وما مصدرها الان ؟ وما هذا الكتاب ذو الغلاف الأسود الذي أسرع الرجل الصخري الكالح باخفائه كما لو كان يخفي شيئا خطيرا ؟ . . قال لنفسه سوف نرى . لابد أن أكتشف الأمر بعد انصرافه . إنه لا يدري كم من الوقت ظل في مواجهته تلك غير أنه عندما ألقى نظرة إلى ساعة الحائط ثم إلى ساعته تأكد أن موعد الانصراف قد حان منذ ساعة على الأقل . حينئذ بطيء وقلبه يدق وجسده يرتعش وتحقق إلى غرفة الرئيس . أدار مقبض الباب ودخل إلى الغرفة . اتجه إلى المكتب وراح يجرب المفاتيح . حتى الفتح درج المكتب . لكنه فوجيء بأنه خال تماما من أي شيء . قال لنفسه عجيبة . غير أن خاطرا طرأ على باله فراح يفحص الدرج بعناية . وتأكد له صدق خاطره عندما لاحظ أن جدران الدرج وأرضيته سميكة جدا قال لنفسه . حقا يوجد درج سري داخل الدرج . راح يتحسس أرضية الدرج بعناية حتى عثرت أصابعه على زر صغير . فاحس بالانتصار . وضغط على الزر . لكن لم يحدث شيء . أعاد الضغط على الزر عدة مرات دون جدوى . فاحس بالهبوط . وراح ينظر إلى درج المكتب الفارغ حين خطر له خاطر آخر . هذان التجويفان الغائران في أرضية الدرج واللذان كان يظنهما مخصصين لوضع أقلام الحبر وما إلى ذلك . ليسا في الواقع مخصصين لهذا الغرض إذ لا يوجد قلم حبر بهذه المساحات . أخرج من جيبه بطاريته وألقى بحزمة الضوء . وضع جبينه فعلا داخل التجويفين فاستقرا تماما . هكذا . إذن فالدرج السري يعمل بتجويفين جهد كل منهما ٩ ، ١ فولت . ضغط على الزر فسمع نكة خفيفة ثم انفتح الدرج السري وراح الكتاب الأسود . أخرجه من مكانه وجلس على المكتب وراح ينظر إليه . على الغلاف كانت عبارة سرية للغاية ، تعلوها تلك الأحرف الثلاثة المشئومة C . I . A اذن فهذه وكالة المخابرات المركزية . بالسحرية للقدر . على شاء أن حظك التعس أن تخدم وكالة المخابرات في النهاية دون أن تدري ؟ . يا لسوء العاقبة . بدأ يقلب صفحاته . الصفحة الأولى عنوانها مقدمة علمية باللغة الأجنبية . عن أحدث النظريات التي تفسر نشأة البترول وتكونه . يقول الكتاب . لقد تعددت النظريات التي تفسر أصل البترول . غير أنه قد ثبت لدينا ما لا يقبل الشك . نتيجة البحوث العلمية المضنية التي قام بها علماؤنا المتخصصون أن البترول في هذه المنطقة . هو في الأصل دماء بشرية تفاعلت مع التربة وتعرضت لظروف معينة من الضغط والحرارة حتى تحولت إلى بترول . ويرجع الفضل في هذا إلى الاعتقاد بأنه كلما زادت كمية الدماء المسفوحة زادت كمية البترول في نفس المنطقة التي تسيل فيها الدماء . . لكن هذا التصور غير صحيح . ذلك أن البترول المتكون انما يرجع عادة عن مسافات بعيدة دون أن يخبره شيء . ويظل راجلا . حتى يتجمع داخل تكوينات جيولوجية معينة تعرف بالمصايد ، هي التي تخبره داخل حشراتها غير المتقنة . وهي التي تكون آثار البترول وحقوله . والدليل على ذلك أن معظم بترول المنطقة العربية هو في الأصل دماء مصرية في الغالب . غير أنه لما كانت التربة المصرية يندر فيها وجود المصايد . فقد رحلت هذه الدماء واستقرت داخل مصايد ليبيا والسعودية والخليج . وفي الصفحة التالية خريطة مصورة تبين المسار الذي اتخذته هذه الدماء . عبر الخامات الغنية في رحيلها الطويل عبر الأيام والسنين .

أحس الشاهر ن . ع بالدماء تكاد تقف في عروقه وهو يواصل القراءة . في الصفحة التالية ، تقرير عن مؤتمر جالسبورج السري الأول .

انعقد هذا المؤتمر بشكل سري في جالسبورج بالولايات المتحدة تحت اشراف وكالة المخابرات المركزية وقد حضره كل من المتخصصين لرؤساء الدول البترولية بمنطقة الشرق الأوسط بالإضافة إلى ممثلي الشركات المنتجة للبترول وممثل البنوك والمصارف العالمية في أوربا وأمريكا . وقد ساعدت المؤتمر روح طيبة من التعاون والتفاهم والتوفيق الذي تحلى الصلحة المشتركة المتمثلة في ضرورة زيادة أرباح كل من الدول والشركات المنتجة وما يستتبعه ذلك من زيادة حجم الودائع لدى البنوك . فضلا عما تتطلبه مصلحة الاقتصاد العالمي ككل من ضرورة إيجاد أنسب الحلول لمواجهة الطلب العالمي المتزايد على موارد الطاقة . وقد وضع الحاضرون نصب أعينهم ما انتهت إليه الدراسات العلمية من أن الدماء المصرية هي المنبع الرئيسي لتكوين احتياطات البترول في هذه المنطقة . مما يدعو إلى ضرورة الاستمرار المستمر لهذه الدماء وهو الأمر الذي يكفله حاليا وجود إسرائيل في المنطقة . ومن ثم كان واضحا لكافة المشتركين في المؤتمر أهمية تشجيع كل من مصر وإسرائيل على شن الحروب المتوالية التي لا يتحقق فيها لاحداهما على الآخر نصر كامل ولا تلحق به هزيمة ساحقة . بل تظل دائما لاحداهما فرصة أن يبدأ حربا جديدة كلما حانت به هزيمة محدودة . كي تدارس الحاضرون كذلك ما يشير إليه الدراسات العلمية من أن الدماء البترولية تتحول أيضا إلى بترول . غير أنه بترول رديء ومحتوى على نسبة عالية من المواد السامة مما يعرض المنطقة بأسرها لتلوث . بالإضافة إلى أن عمليات استخلاصه الصناعية هي عمليات مضرة للغاية ويمكن أن يلي عبأ بسهولة ذلك البترول الناتج من دماء الدماء الليبية والأردنية والسورية . فضلا عن جودة البترول الناتج من دماء الدماء إلى حد يقرب من مستوى جودة بترول الدماء المصرية . وبعد أن تدارس الحاضرون كافة جوانب الموقف انتهوا إلى اصدار التوصيات الخمسة التالية :

أولا :

على الولايات المتحدة الأمريكية أن تعيد النظر في بنود الاتفاق الشرقي والمصري والدول الاشتراكية الأخرى من الأسلحة إلى مصر لأن هذه الأسلحة هي التي تشجعها على شن الحرب . وبما أن هذه الأسلحة هي التي تقدم الأسلحة إلى مصر كما هو حادث حاليا فإن الولايات المتحدة عليها أن تقوم بهذا الدور بدلا منه إذ ينبغي عليها أن تقدم إلى مصر حاليا من احتياطيها العسكرية مع فيضانها للمعونة العسكرية الإسرائيلية قدر ما يبقى أن تراعي جانب الحيطة والحذر فلا تقدم لإسرائيل من الأسلحة ما يمكنها من الإجهاز على مصر تماما إذا أنه لو حدث فسوف يكون نهاية كارثة لها .

ثانيا :

على جميع الأطراف المشتركة في المؤتمر أن تعمل بكافة الوسائل على تحجيم التناقضات القائمة في المنطقة خاصة في لبنان وسوريا والأردن والمنظمات الفلسطينية وذلك لضمان موارد البترول من الدماء بتدعيم موارد الدماء المصرية ذات الصنف الممتاز .

ثالثا :

على الدول العربية أن تول عنايتها مصر من الأسلحة كما أن عليها أن تقدم إليها المعونات المالية والمعونات الفنية حتى لا يصاب أبناء الشعب المصري بفقر الدم مما يؤثر تأثيرا سيئا على مستوى جودة البترول الناتج من دمائهم . غير أنه ينبغي مراعاة الحذر في ذلك إذ يجب أن تكون المعونة بقدر محدود حتى لا ينعم المصريون بالاطمئنان ويتحولون مجددا إلى قوة فعالة قادرة على حسم كل شيء لحسابها الخاص .

رابعا :

ينبغي كذلك تشجيع مناخ الخوف والارهاب في مصر وذلك لضمان تدفق الدماء خاصة في تلك الفترات التي توقف فيها الحرب . وفي هذا المجال ينبغي تشجيع الجماعات الدينية المتطرفة . تلك التي تتميز عادة بالتعطش الشديد إلى سفك الدم .

خامسا :

ينبغي كذلك تشجيع المصريين على التوالد وزيادة النسل وبالإضافة إلى ما سبق ذكره في البند الثالث من تقديم المعونات الاقتصادية إلى مصر التي الضروري أيضا شن حملة اعلامية صاخبة تحث المصريين على زيادة نسلهم . ولما كان الشعب المصري مطيعا بطبعه فان أنسب المداخل إلى ذلك هو المدخل الديني وفي هذا المجال ينبغي الترويج للأحاديث النبوية المأثورة التي تشجع إلى زيادة النسل ومن أمثلتها : تناكحوا . تناسلوا . فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة ، وفي نفس الوقت ينبغي التشكيك في صحة الأحاديث التي تدعو إلى تقليل النسل ومنها ، وجهد البلاء . كثرة العيال وقلة الشيء ، باعتبارها أحاديث منسوخة فحياة النساء ، وعلى أية حال وطبقا للدراسات الناجحة فإن تعداد الشعب المصري ينقص الا بقل عن الأحوال عن ٥٠ مليون نسمة عام ١٩٨٠ .

وهنا أوقف الشاهر ن . ع عندما وصل إلى هذا الحد